

المعهد
الاسكندنافي
لحقوق الإنسان



SIHR - FHM

L'Institut Scandinave pour
les Droits de l'Homme

Fondation Haytham Manna

القوى السياسية والعسكرية والمدنية في سوريا (2011-2021)

حركة أحرار الشام الإسلامية



لعل من أكثر الحركات الجهادية غموضاً وسرية حركة أحرار الشام. وقد دفعت ثمن السرية المؤسسية عملية قضت على أهم كوادرها ومؤسسيها بمن فيهم أميرها المؤسس حسان عبود (أبو عبد الله الحموي).

ظهر اسم "أحرار الشام" في فيلم مبكر على شبكات التواصل الاجتماعي يعود للنصف الثاني من حزيران/يونيو 2011 لمجموعة من المقاتلين يحملون راية كتب عليها "كتائب أحرار الشام"، بعد قرابة عشرين يوماً من الإفراج عن مؤسسها حسان عبود، وقد تحولت إلى حركة أحرار الشام الإسلامية باتحاد أربع فصائل إسلامية سورية هي كتائب أحرار الشام وحركة الفجر الإسلامية وجماعة الطليعة الإسلامية وكتائب الإيمان المقاتلة في نهاية 2011.

حسان عبود من مواليد محافظة حماة قرية الحويز، عام 1979. درس اللغة الإنكليزية وعمل مدرساً قبل اعتقاله من قبل السلطات السورية في 2004، اعتقل ضمن حملات الاعتقال التي طالت السلفيين الجهاديين الذين تدربوا عسكرياً أو قصدوا الالتحاق بجماعة الزرقاوي (القاعدة) في العراق، ووضع مع صحبه في عنابر هذه المجموعات في سجن صيدنايا، حيث وقعت أكثر النقاشات والافتراقات وإعادة التحلق بين سلفيين بعضهم متأثر بالوهابية السعودية والبعض الآخر بالقطبية وقسم عائد أو تم تسليمه من الأفغان العرب. كانت سوريا في تلك الفترة بالنسبة لتنظيم القاعدة، أرض عبور لا أرض ثبور، الأمر الذي كان من عوامل ابتعاد عدد من السلفيين الجهاديين عما سمي بالعنبر الأفغاني. وقد أفرجت السلطات السورية عن حسان عبود مع عدد هام ممن أصبح قيادياً أو مؤسساً في تنظيم جهادي سلفي، في مايو/أيار 2011 حيث شمل العفو الرئاسي قرابة 1400 جهادي سوري وعربي من سجن صيدنايا.

يمكن القول أن حسان عبود، المتقاني حركياً والزاهد مالياً، كان يحتفظ لنفسه بمكانة متميزة عن نظرائه في سجن صيدنايا أثناء الاعتقال. ووفق شهادة قدمها سجين شاطره الاعتقال وتواصل معه حتى قبيل العملية التي كان من ضحاياها (شهادة مقدمة للمعهد الاسكندنافي لحقوق الإنسان): "يجمع أبو عبد الله بين الثقافة السلفية الجهادية والعقل التنظيمي، لذا كان يشعر بتفوق طبيعي على إخوانه يسمح له بأن يكون المرشد لهذا التيار والمحدد لسياساته والمنظم لعملياته العسكرية. ولا أنسى تعليقه على علاقة الأحرار بالنصرة والبغدادي والجيش الحر: "تنظمتنا قبل ما يسمى بالجيش الحر، وجاهدنا قبل القاعدة، الجيش الحر كان بأمره غرقتي عمليات دولية وإقليمية، والنصرة نشأت بتكليف من البغدادي للجولاني ثم انشقت عنه وبايعت الظواهري. أما بيعتنا فجاءت لنا من أهل الشام ومن يناصرهم من مسلمي الأرض، ولا نحتاج مظلة من أحد".

أما موقفه من الائتلاف، فبقي مصرّ عليه لآخر تصريح له قبل إسبوعين من مقتله في حديث لصحفية بريطانية: "ما نزال غير مصادقين على الائتلاف؛ لأنه يدار من عدد من الدول التي لها أجندها الخاصة، والتي لا تخدم مصالح الشعب السوري." وفي حديث مسجل مع محيي الدين الشامي سؤل فيه عن سبب رفض الأحرار التعامل مع إسلاميي الائتلاف أجب: "اقرأ ما كتبه الشهيد سيد قطب عن الإسلام الرباني والإسلام الأمريكي"... لم يكن الكادر الأول على قناعة بفاعلية النضال المدني السلمي واعتبر تنظيمات الداخل وهيئة التنسيق الوطنية صنيعة من صنائع السلطة. وإن ادعى حسان عبود في مقابلة مع الجزيرة، أن أول أسباب التشكيل، كانت لحماية المتظاهرين السلميين، فليس ثمة أي دليل أو حدث يدل على مشاركتهم في الاحتجاجات السلمية.

هذا التصور لتنظيم يتعامل بندية مع الآخرين جعل "القاعدة" تحرص على وجود عدد من كوادرها في حركة أحرار الشام مبكراً. وقد نجحت في ذلك. ورغم أن عملية 9 سبتمبر 2014 التي قضى فيها حسان عبود مع أبو يزن الشامي، أبو طلحة المخزومي، أبو عبد الملك الشرعي، أبو أيمن رام حمدان القائد العسكري، محيي الدين الشامي نائب حسن عبود، أبو حمزة، أبو أيمن الحماوي، أبو سارية الشامي، أبو يوسف بنش، طلال الأحمد تمام وأبو الزبير الحماوي... قد سمحت لمجموعات إسلامية إخوانية وأخرى محسوبة على تركيا بالدخول بقوة في الهيكل القيادي والصف الثاني فإن هذا لم يغير في علاقة الحركة بغير السوريين حتى وقت متأخر. فالتقديرات الداخلية تقول بأن عدد السعوديين بلغ في أعلى مراحل 800 سعودي قبل أن تختطف النصر وداعش الأضواء ويتراجع العدد لالتحاق أكثر من النصف بالتنظيمين أو بالدار الآخرة.

تعد «أحرار الشام» من أوائل الفصائل التي استقبلت مقاتلين أجانب منذ الأشهر الأولى لاندلاع الأزمة السورية، وقبل ظهور «جبهة النصر» و«داعش». وتجدر الإشارة إلى أن تواجد السعوديين أو غيرهم من «المقاتلين الأجانب» في صفوف الحركة يتسم بسرية عالية جداً، ويحاط هؤلاء بإجراءات تضمن عدم انكشاف هوياتهم وجنسياتهم. وقد بات معروفاً أن الأجانب في «أحرار الشام» لا يُعرفون إلا بعد مقتلهم. ولا يقتصر عمل السعوديين على التدريب والتوجيه كما يعتقد البعض، بل هم يتصدرون قيادة الحركة ويتولون مناصب عالية فيها سواء بجناحها العسكري أو الشرعي أو القضائي، كما يُعتمد عليهم لتنفيذ العمليات الهجومية الانغماسية أو الانتحارية. ومن أشهر السعوديين الذين انضموا إلى «أحرار الشام» وانشقوا عنها الشيخ عثمان النازح، الذي بايع تنظيم «داعش» وتولى فيه رئاسة ديوان التعليم قبل مقتله في معركة عين العرب/كوباني.. ومن هؤلاء القادة نذكر على سبيل المثال أبو محمود الجزراوي الذي يتولى منصب «الأمير الشرعي» في مدينة أعزاز شمال حلب، وأبو منصور الجزراوي الذي يتولى منصباً عسكرياً في حندرات شمال حلب. كما يتولى عبد الله النجدي منصباً شرعياً مهماً. فيما يعتبر السعودي الملقب بـ «البتار النجدي» من أشهر قادة الحركة على موقع التواصل الاجتماعي «تويتر». كما يعتبر السعودي أبو عبيدة الجزراوي من القيادات الكبيرة التي تتولى مهام عدة «شرعية» وإعلامية. وكذلك يُعدّ الشيخ السعودي مصلح العلياني

من المقربين من «أحرار الشام» برغم أنه يقدم نفسه كشيخ مستقل غير منتم لأي فصيل، وقد ظهر في ريف اللاذقية عبر مقطع فيديو وهو يحرض مقاتلين من «أحرار الشام» قبل قيامهم بقصف المدنيين في مدينة اللاذقية بقذائف صاروخية.

من أهم المعسكرات التي جرى فيها تدريب المقاتلين السعوديين، معسكر «عاقدي العزم» في ريف حمص الشمالي الذي يتضمن برامج تدريب عسكرية ودورات إعداد «شرعية» مطابقة لتلك التي تجري في معسكرات «جبهة النصرة» و «داعش». كما يجري فرز عدد من المقاتلين الأجانب الذين يتدربون في المعسكرات التي أقامها السعودي عبد الله المحيسني، إلى «أحرار الشام» وأهم هذه المعسكرات «الفاروق» و «البتار» و «الغرياء».

تقرّ «حركة أحرار الشام» العرف الذي ابتدعته تنظيمات «القاعدة» بخصوص ألقاب المقاتلين السعوديين واستخدام مصطلح «الجزراوي» أو «النجدي» للدلالة على المقاتل السعودي، والذي يراد منه التعبير عن عدم الاعتراف بشرعية حكم آل سعود، وعدم الرضى عن تسمية الدولة باسم العائلة الحاكمة. وقد قُتل من هؤلاء السعوديين، الذين يقاتلون ضمن صفوف «أحرار الشام»، العشرات خلال العام الحالي وحده. ومن أبرز القتلى نذكر: محمد التويجري وكان مسؤول القطاع العسكري في ريف إدلب وقائد عسكري في «لواء أحفاد علي»، وعبد الرحمن الخضير الملقب بأبي بدر النجدي، قتل في معركة الفوعة، وإبراهيم اليحيى الملقب بأبي صالح النجدي وهو من القيادات الشرعية في «لواء أحفاد علي» وقتل في جنوب إدلب، وأبو مصعب الجزراوي واسمه خالد البارقي وقد قتل بتنفيذه عملية انتحارية على أحد حواجز السمرانية، وأبو حمزة النجدي واسمه هاني عبد الكريم اللاحم وكان من قادة «كتيبة الفرقان»، وأبو أسيد الجزراوي الذي قتل على يد «جبهة النصرة» في ريف إدلب نتيجة خلاف على أحد الحواجز، وعشرات غيرهم لا يتسع المجال لذكرهم.

وليس هذا فحسب بل إن «حركة أحرار الشام» تقوم بتجهيز الانتحاريين السعوديين حتى لو كانوا ينتمون إلى فصيل غيرها، كما حصل مع عيد العتيبي الملقب بأبي سالم الروقي الذي ينتمي إلى «جبهة النصرة»، لكن «أحرار الشام» هي من تكفلت بتجهيز عريته المفخخة وتحملت تكاليفها ليفجّر نفسه في سهل الغاب بريف حماه في نيسان 2015.

التحق بأحرار الشام عدد من الكويتيين أيضا من أتباع الشيخ حامد العلي ولكن دورهم الأكبر كان في إيصال المساعدات المالية ضمن الحملات التي أطلق عليها "من جهاز غازيا فقد غزا"، وكان التواصل مع خلية الدوحة السلفية يتم عبر أمير الأحرار في حلب "أبو خالد السوري" الذي اتخذ اسما حركيا هو "أبو عمير الشامي" عرفانا للشيخ عبد الرحمن النعيمي (أبو عمير) وموقفه الداعم للأحرار والذي كان السبب المباشر في تصنيف النعيمي على لوائح الغرب والأمم المتحدة للإرهاب.



وفي تأكيد على أهمية العنصر الأجنبي ضمن «حركة أحرار الشام» أكد عضو مجلس الشورى أبو عزام الأنصاري أن الحركة تخطط لتجنيس هؤلاء ومنع محاكمتهم في أي دولة أخرى.

وفق قوائم اللجنة العربية لحقوق الإنسان، بلغ عدد المعتقلين من الإسلاميين في سجن صيدنايا، على اختلاف مشاربيهم في 2007 قرابة 1400 إسلامي "جهادي" من كل مشرب وحذب وصوب. فمنهم من كان بعلاقة مباشرة مع تنظيم القاعدة وفتح الشام، ومنهم من كان يؤسس لجند الشام. وكانت علاقة أبو معاذ (أبو مدين الفلسطيني) ومؤيد اللبناني وخلفه فواز اللبناني مع القاعدة معروفة. حتى دعوة أبو العدل وما كان يسمى بدعوة الغاب (حسان عبود) كانت تعرف بين السجناء بدعوى القاعدة. كان أبو حمزة الجغل، من الأفغان السوريين ينشر آراء أبو عبد الله المهاجر (خالد حسن محمد بنات) بين المعتقلين. وكما ينكر الدكتور مظهر الويس، أحد أهم كوادر جبهة النصرة في دير الزور عند انطلاقها، في مدونته وشهادته عن سجن صيدنايا، كان ثمة جناح يعرف باسم "الجناح 33" نسبة لدعوى أفغانستان وعددهم 33. لم تكن هذه المجموعة منسجمة عقائدياً وتنظيمياً، في حين برز التقارب الإيديولوجي أكثر في المجموعات العائدة من العراق والمتأثرة بالطبعة الزرقاوية للقاعدة: عدم العذر بالجهل مطلقاً، كفر البرلمانين بالأعيان، تكفير الشيعة، كفر المتحاكم إلخ. وفي حين توزعت المجموعة الأفغانية بين حركة أحرار الشام وجبهة النصرة، استقطبت النصرة معظم العائدين من العراق. وقد أعطت مجموعات صيدنايا كوادر جاهزة ومدربة لجبهة النصرة تبوأَت مواقع أساسية في التنظيم أهمها أبو مالك التلي/الشامي (جمال حسين زيدية) أمير النصرة في القلمون، وعبد الرحيم عطون (أبو عبد الله الشامي) عضو مجلس الشورى والشرعي في التنظيم، والذي سيتابع المسيرة مع جبهة فتح الشام وهيئة تحرير الشام.

لم يغيب عن "دعوة الغاب" الصورة السلبية لتنظيم القاعدة في الرأي العام السوري وغياب حاضنة شعبية للتنظيمات السلفية الجهادية في سوريا والخطاب الإسلامي الوسطي الغالب في الأوساط السورية. وحتى جبهة النصرة كانت تركز عملياتها على مواجهة مفاصل القوة في السلطة أكثر منه على الخطاب الإيديولوجي، ولم تعلن بيعتها للظاهري إلا مضطرة. وحاولت كسب الجمهور باعتبارها قادرة على القيام بعمليات نوعية ضد أجهزة الأمن وبعض القطعات العسكرية الخاصة والقيادات السياسية والعسكرية. ولو أن بعض عملياتها الأولى (كعملية الميدان) كان معظم ضحاياها من المدنيين.

كانت النواة الصلبة «لكتائب أحرار الشام» من سجن صيدنايا وتوزعت بين متأثرين بآراء حسان عبود أو اتباع "أبو العباس الشامي" (محمد أيمن أبو التوت)¹.

ينبغي عدم الاستغراب من معرفة أن أبا محمد الصادق² الذي شغل منصب عضو مجلس شورى «أحرار الشام» وكان يشغل سابقاً منصب المفتي العام للحركة، كان من أبرز الشيوخ الذين تعلم أبو محمد العدناني، الناطق الرسمي باسم دولة الخلافة (داعش) على أيديهم ودفعوا به لمبايعة الزرقاوي قبل عقد زمني من الحراك الشعبي السوري في 18 آذار/مارس 2011. وذلك لأن العشرات من قادة «أحرار الشام» الحاليين أو السابقين، الأحياء أو القتلى، كانوا من السابقين على صعيد سوريا إلى مبايعة الزرقاوي والقتال تحت إمرته في العراق، ومن أبرز هؤلاء أبو أيمن الحموي وهاشم الشيخ أبو جابر الذي شغل منصب القائد العام لحركة «أحرار الشام» بعد اغتيال القيادة في عملية 9 سبتمبر/أيلول 2014.

التصور الإيديولوجي والسياسي للأحرار

كتب في تصور حركة أحرار الشام الإيديولوجي الكثير، إلا أنه بعيداً عن عمليات التجميل والتقييح التي تعرضت لها من خارجها، يبدو واضحاً من شهادات جمعناها والتصريحات الإعلامية لمؤسسيها وموقع الحركة الرسمي (حتى مؤتمر الرياض 8-10/ديسمبر 2015) ثبات الحركة على مفاهيم جهادية سلفية أساسية يعود الفضل لحسان عبود في بلورتها:

- 1- رفض الحركة اعتبار نفسها امتداداً أو فرعاً لأي حزب أو تنظيم أو جماعة.
- 2- الجهاد لإسقاط النظام والتخلص من مؤسساته الكافرة وأولها المؤسسة العسكرية
- 3- اعتبار الجهاد في بلاد الشام جزءاً من الجهاد الإسلامي ضد الرافضة والشيعة وكل من يدين لغير الله، واعتبار الجيش النظامي السوري أكبر الميليشيات الشيعية التي تحارب الإسلام والمسلمين.

¹ من مواليد دمشق 1959، شارك في مواجهات 1978-1982 وغادر سوريا في 1981، سلمته السلطات التركية لدمشق في صفقة أمنية في 1993، أمضى في السجن 13 عاماً وخرج بعفو رئاسي، عادت السلطات الأمنية واعتقلته بعد 9 أشهر ولم يفرج الأمن عنه مع باقي معتقلي صيدنايا حيث بقي لمنتصف 2012 في السجن. التحق بالأحرار وباقي الفصائل الإسلامية المسلحة في الشمال فور خروجه.

² من المشايخ الإشكاليين في الوسط السلفي الجهادي، اسمه نضال حسن وهو من مواليد عفرين، من عائلة كردية. متهم بإعطاء أسماء 18 عشر قيادياً من التجربة التنظيمية الأولى له في 2005 نتيجة للتعذيب الشديد الذي تعرض له، عين شرعياً عاملاً لحركة أحرار الشام بعد اغتيال قيادتها.

- 4- الحاكمة لله والشريعة الإسلامية ومن يحكم الشرع هو من يحكم، شريعة الله كاملة ولا يحتاج المسلمون لأي مصدر آخر للتشريع.
- 5- الديمقراطية شرك لأنها تقوم على حكم الناس بالناس والإسلام نظام رباني الحاكمة فيه لله وحده.
- 6- عدم الاعتراف باتفاقية سايكس بيكو واعتبار بلاد الشام أرض الجهاد.
- 7- لا تفاوض ولا حوار ولا يمكن التخلص من النظام النصيري إلا بالجهاد.
- 8- التنسيق والتعاون مع كل الفصائل الإسلامية في الميدان.
- 9- عدم الإعتراف بالمجلس الوطني ومن بعده الائتلاف لأنها هياكل مرتبهة لإرادة الخارج، كذلك هيئة التنسيق لأنها صنعية النظام.
- 10- قبول المساعدات البشرية والمالية والعسكرية من أهل الخير المسلمين في الخارج سوريين أو غير سوريين³.

تشكيل الجبهة الإسلامية في سورية

توجه روبرت فورد السفير السابق للولايات المتحدة في دمشق ومسئول الملف السوري في الخارجية الأمريكية من اسطنبول إلى أنطاكية للاجتماع مع "الجبهة الإسلامية" بعد أيام فقط من تشكيلها. وقد كان الاجتماع مع قيادات منها باسم تنظيماها تمهيدا لاجتماع رسمي باسم "الجبهة" واستمر لساعات أربع. قد يكون أحد أهم الأسباب التي جعلت هذه الجبهة الوليدة محط اهتمام إعلامي وسياسي لم يسبق أن حظي بمثله تنظيم في سوريا منذ بدء الأزمة، لا سيما أن ولادة الجبهة ترافقت مع تراجع بريق وقوة "الجيش الحر" وغرقتي العمليات (الموم والموك)، الذي بُذلت جهود إقليمية ودولية كبيرة طوال سنوات الأزمة لمحاولة

³ يقول مزمر الشام حول هذا الموضوع: "لا أعلم فصيلا في سوريا لم يتلق دعما خارجيا، ولكن من يأخذ دعمه من تحت الطاولة، اعتاد على المزودة على من يأخذه من فوقها". ويضيف: "ألم يعاتب الجولاني أبو عبد الله الحموي سابقا لتلقيه دعم من جهة خارجية مشبوهة على حد وصفه، فرد عليه الحموي أن مندوبكم استلم حصته أيضا؟" (تويتر المزمر، 2017/01/31). في دراسة صادرة عن مركز كارنيغي، بعنوان "سياسة قطر الخارجية وموازن القوى في الخليج"، تقول لينا الخطيب مديرة المركز للشرق الأوسط: "رعت كل دولة خليجية شبكتها الخاصة من الزبائن الجهاديين في سورية، في محاولة منها لممارسة ضغط عسكري على نظام الأسد. تزعم الأمير السعودي بندر على وجه الخصوص عملية تمويل عدد من الجماعات، مثل جيش الإسلام، والتي انضوى الكثير منها في وقت لاحق تحت مظلة الجبهة الإسلامية. وفي الوقت نفسه، وجدت مجموعات مدعومة من قطر تابعة لتنظيم القاعدة، مثل جبهة النصر، ملاذاً لها في سورية. بيد أن استخدام الجهاديين بدأ يأتي بنتائج عكسية. فبدلاً من تركيز جهودها على النظام السوري انخرطت الجماعات الجهادية المدعومة من قطر والسعودية في جبهتين أخريين: محاربة الدولة الإسلامية ومحاربة بعضها البعض". (إصدارات المركز، 11 سبتمبر 2014). كشفت وثائق ويكيليكس العديد من المراسلات التي تتحدث عن مساعدات حكومية الطابع للجماعات الجهادية، وليس فقط غير مباشرة أو "إنسانية" وعبر "أهل الإحسان والنخوة من رجال الأعمال السلفيين". حول المصادر المالية لجبهة النصر ثمة مصادر عديدة تناولت الموضوع منها:

تعليمه وجعله الممثل والقائد الرئيس للعمل المسلح ضد النظام السوري. لكن قيادة الأركان، الضحلة التجربة والكفاءة، والتي تحدثت بخطاب يعجب دول "أصدقاء الشعب السوري"، لم تكن تسيطر عمليا على سير العمليات وخطتها بقدر ما كانت توضع تحت الأمر الواقع بعد عدة عمليات مشتركة مع جبهة النصرة والدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) واكتفت بتسريب السلاح بشكل مباشر أو غير مباشر للمتطرفين عبر تكوينات عضو في قيادة الأركان كما حدث في حلب وإدلب والجزيرة ودير الزور والرقه وريف حماه وريف اللاذقية الشمالي ومنطقة القلمون، وثلاثة أعضاء "إسلاميين" في الائتلاف كانوا حملة حقائب، لم تستطع هذه القيادة أن تصمد طويلاً أمام تصاعد موجة التنظيمات الإسلامية المختلفة التي كانت أساساً؛ بتعبيرها السلفي والأخواني؛ في صلب تكوين الجيش الحر. فلم يكن من المخابرات السعودية والقطرية والتركية إلا أن نظمت ثالث عملية تنسيق بين القوى السلفية الجهادية، بعد فشل تجربتين توحيديتين سابقتين: "الجبهة الإسلامية السورية" التي ضمت "أحرار الشام" و"لواء الحق" و"أنصار الشام"، و"جبهة تحرير سوريا الإسلامية"، التي ضمت "لواء التوحيد" و"جيش الإسلام" و"صقور الشام".

تشكلت "الجبهة الإسلامية" في 22 تشرين الثاني 2013، من اتفاق فصائل يسودها الطابع الإسلامي، أهمها "أحرار الشام"، "جيش الإسلام"، "لواء التوحيد"، "صقور الشام"، "لواء الحق"، "أنصار الشام"، و"الجبهة الإسلامية الكردية" و"لواء الإيمان" و"حركة الفجر الإسلامية".

لسنا في حاجة إلى بذل جهد كبير كي نكتشف أن عملية اجتماع الجبهتين أظهرت بشكل واضح للعيان مدى طغيان "الجبهة الإسلامية السورية" على "جبهة تحرير سوريا الإسلامية"، بحيث خرجت "الجبهة الإسلامية" الوليدة أقرب ما تكون إلى الأولى، سواء من حيث الشكل أو المضمون.

شكلت "حركة أحرار الشام" العمود الفقري والعقل المدبر لتأسيس "الجبهة الإسلامية السورية"، التي تأسست في 22 كانون الأول العام 2012. ويلاحظ من حيث الشكل أن "الجبهة الإسلامية" الوليدة حملت نفس الاسم لكن مع رفع الانتماء الوطني عنه، أي كلمة "السورية"، وهذا له مدلولات لا تخفى لجهة الطموح الإقليمي لـ "الجبهة الإسلامية" بتحقيق هدف الخلافة الإسلامية ومحاربة الطواغيت أينما كانوا. كما أن شعار "الجبهة الإسلامية" حافظ على نفس شعار "الجبهة الإسلامية السورية"، الذي هو بدوره نفس شعار "حركة أحرار الشام".

أما من جهة المضمون فيكفي الإشارة إلى أن "حركة أحرار الشام" لم تكتف بمنصب رئيس المكتب السياسي في "الجبهة الإسلامية"، والذي شغله "أميرها" حسان عبود (أبو عبد الله الحموي)، وإنما حظيت بمنصب "مفتي عام" هذه الجبهة الذي شغله "المفتي العام نفسه لحركة أحرار الشام" و"الجبهة الإسلامية السورية"، أبو العباس الشامي حتى أيلول 2014.



لم تكن "حركة أحرار الشام" تخفي الانتماء إلى تيار "السلفية الجهادية" الذي يتبنى "الجهاد" منهجاً للتغيير وتحكيم الشريعة الإسلامية، ورفض جميع القوانين الوضعية وأنظمتها، بما فيها الديمقراطية والانتخابات والبرلمانات. ما يعني أن "المفتي العام للجبهة الإسلامية" الوليدة سوف يؤطر عمل هذه الجبهة بمفاهيم السلفية "الجهادية"، خاصة أن ميثاق "الجبهة الإسلامية" نص بوضوح على رفضه للديمقراطية والمدنية والعلمانية، كما وضع إقامة "الدولة الإسلامية" التي تحكم وفق الشريعة هدفاً أسمى للجبهة. يعزز ذلك أن الفصائل الأخرى المشاركة في تشكيل "الجبهة الإسلامية" ليس لديها منهج واضح وثابت مثل "أحرار الشام"، بل هي تنتقل من منهج إلى آخر، ومن هدف إلى هدف، بحسب الظروف المحيطة. فعلى سبيل المثال، فإن "قائد جيش الإسلام" زهران علوش وافق في آب العام الماضي على ميثاق "تجمع أنصار الإسلام"، الذي أكد في ميثاقه أن الغاية من التجمع هي إقامة "الخلافة الإسلامية الراشدة". أمسك "لواء الإسلام" بالغوطة وريف دمشق، ثم تراجع علوش عن مطلب "الخلافة الإسلامية أو كتمه. حتى أنه عقب تأسيس "جيش الإسلام" اكتفى بالقول إنه يريد تأسيس دولة العدل وحسب، بينما كان في أوقات أخرى يتحدث عن مطلب الدولة الإسلامية مع تمييزها عن الخلافة. أما "قائد ألوية صقور الشام" أحمد أبو عيسى الشيخ، وهو أيضاً من سجناء سجن صيدنايا، فقد كان في بداية الأزمة السورية يبشر بالدولة المدنية، التي تحمل مبادئ الديمقراطية والمساواة، ولم يكن لديه مانع من

تولي سوري نصراني منصباً وزارياً، كما ورد في فيديو جرى تسريبه لأحد مجالس أبو عيسى الشيخ، لكنه بعد تأسيس "الجبهة الإسلامية" تراجع عن هذه الأقوال جملة وتفصيلاً، بل إنه برر هذا التراجع بطريقة غريبة، حيث قال في تغريدة له "بالنسبة للفيديو الذي تاجر به أصحاب الفتن بعد عامين من ظهوره على الإعلام فعليهم أن يعوا المراحل، فقد نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً!" وانتهى الأمر بضم فصيله لأحرار الشام ثم عاد واستقل عنها. وعندما قررت جبهة فتح الشام (جفش) تصفية التنظيم أطلق الشيخ عليها اسم "جبهة فتح الإجمام" وأعلن من جديد انضمام صفوف الشام لحركة أحرار الشام.

أما بالنسبة لـ "لواء التوحيد"، وهو الفصيل الثالث من فصائل "جبهة تحرير سوريا الإسلامية"، فطالما كانت قيادة "اللواء" تتحدث عن الدولة المدنية ويغلب على خطابها النفس الثوري، حتى أن كثيرين كانوا يعتبرون "لواء التوحيد" هو الذراع العسكرية لجماعة "الأخوان المسلمين" في سوريا، ولكن تبين بعد ذلك أن هذا "اللواء" لم يكن له انتماء محدد كسابقيه ولو أنه ضم ما ضم من الأخوان المسلمين والسلفيين، وأن خطابه الإسلامي قد تبع عمليات التوحيد التي خاضها منذ دخول الفصائل المسلحة مدينة حلب، حيث أن التقارب والاندماج لقربة 29 فوجاً تضم حوالي عشرة آلاف مقاتل ترافق براديكالية في خطاب عبد القادر صالح الذي صار يتحدث بوضوح أكثر عن رفض الضباط المنشقين غير المؤمنين بإعلاء كلمة لا إله إلا الله، والحرب على المنجل الشيعي (الهلال الفارسي الشعبي الصفوي حسب تعبيره)، وتصريحه بذلك في لقاء مع الجزيرة، الأمر الذي أكده "المسؤول الشرعي لجبهة النصرة" أبا ماري القحطاني عندما أقسم بالله ثلاثاً في تغريدة له على "تويتر" أن "قائد لواء التوحيد" عبد القادر صالح قال له قبل مقتله إن هدف اللواء هو "الخلافة النبوية الراشدة".

في نوفمبر 2015، صنع زهران علوش وجيشه قرابة مئة قفص حديدي وضع فيها أسرى سوريين اتهموا بالوقوف مع النظام السوري بحجة وقف القصف على مناطق تنظيمه المسلح. وقد تم تقسيم الأقفاص وفق الانتماء الطائفي والديني. وقد استقرت هذه الحادثة العديد من الفصائل والقوى السياسية المعارضة وكتب أكثر من معارض بأن هذا السلوك "لا فائدة منه سوى مزيد من تجريم الثورة أمام الرأي العام العربي والعالمى وحتى المحلي" (رائد الجندي، أقفاص علوش الداعشية، العربي 21، 14 نوفمبر 2015). وقد جاء هذا التصرف ليعزز الأدلة على مسؤولية جيش الإسلام في اختطاف النشطاء الحقوقيين (رزان زيتون وزملائها)، باعتبار زهران علوش "قائداً ضعيفاً مشتتاً" "لا يملك تصوراً يختلف عن بناء أجهزة أمن وقمع فلدنيه جميل حسن الإسلامي وعلي مملوك الخاص به". ولعل منعطفات الأحداث واغتيال زهران، قد ساهما في حدوث تحولات هامة داخل جيش الإسلام عبر سيطرة اتجاه يدفع باتجاه المفاوضات والحل السياسي.

ندخل في هذه التفاصيل لتوضيح الأزمة البنيوية والوظيفية الأساسية في التنظيمات الجهادية السلفية. فرغم أن فكرة التوحيد لم تغادر خطاب أي منها، إلا أنها كانت دائماً شديدة الحرص على بنيتها الداخلية المستقلة واستعدادها لضم أو قبول من يأتي إلى كل منها، بالرضى أو الإكراه، أكثر منه بناء جبهة واحدة بقيادة عسكرية وسياسية موحدة. وفي شهادة لأحد قياديي جيش الإسلام قالها بوضوح لنا: "كل المتبرعين حكومات

أو من أهل الخير، كانوا يشجعون على بقاء حالة انقسام دائمة. اعطيك مثلاً فيلق الرحمن وجيش الإسلام، أي تقارب أو توحيد كان يعني التضحية بمصادر التمويل الأساسية لكلا الفصيلين، وكون السعودية وقطر قد دخلا في حالة صراع مصالح منذ استلام بندر بن سلطان للملف السوري، صار قمة ما يمكن التوصل إليه بين الطرفين وقف إطلاق النار أو كف الأذى".

ميثاق الأحرار والجبته: الحاكمية لله

ما يؤكد أن "الجبته الإسلامية" حسمت قضية الانتماء عند قيامها، هو أن ميثاقها في مادته الأولى أكد، بما لا يدع مجالاً للشك، تبنيها لأهم مبدأ من مبادئ أدبيات السلفية "الجهادية"، وهو مبدأ "حاكمية الله"، عندما نص على أن الجبته تهدف إلى "بناء دولة إسلامية تكون السيادة فيها لشرع الله عز وجل وحده مرجعاً وحاكماً وموجهاً وناظماً لتصرفات الفرد والمجتمع والدولة". ثم تعززت صحة هذا الانتماء عبر تبني الميثاق لمبدأ "الولاء والبراء"، الذي يعني أن تكون الدولة قائمة على أساس إسلامي ديني، وليس شعبي قومي، ولاؤها للإسلام والمسلمين ومعادية للشرك والمشركين، دولة تتبنى الإسلام في سياستها الداخلية ليصبح المسلمون في موضع عزة وتحكم في مفاصل الدولة الأساس. وفي السياسة الخارجية هدفها "إعلاء كلمة الله وإقامة دولة إسلامية عالمية قوية، دولة معادية للأنظمة المحاربة وغير الشرعية (والنظام الشرعي من وجهة النظر الفقهية السلفية إما أن تكون الدولة: إسلامية تحكم بالشريعة أو ذمية تدفع الجزية أو معاهدة)", وهذا ما نصت عليه المادة الخامسة من الميثاق التي جاء فيها إن "أبناء الجبته مسلمون، ولاؤهم لدين الله، جمعهم الجهاد في سبيل الله ورفض الظلم والطغيان، هدفهم إقامة شرع الله، يعتزرون بانتمائهم للأمة الإسلامية ويعتبرون أنفسهم جزءاً لا يتجزأ منها"، وكذلك المادة 14 التي نصت على أن "تتمتع الجبته بعلاقات دولية جيدة مع جميع الدول التي لا تناصبها العدا، وبما يحقق المصلحة وفق الضوابط الشرعية"، والضوابط الشرعية المقصودة هنا هي ضابط "الولاء والبراء" المنوه عنه آنفاً. وفي هذه النقطة نلاحظ التلاقي مع "القاعدة" التي تعترف بأهمية العامل الخارجي، كما تقول الورقة البحثية بعنوان "إستراتيجية الحرب الإقليمية على أرض الشام"، والتي لقيت اهتماماً لافتاً، حيث جاء فيها: "فأيُّ لعب محلي لا يراعي الدائرة الأعم، ويفهم كيف يسايرها، وينسب الجهود، بموجب ذلك فلن يفلح في تحريك شيء إلا أن يشاء الله". وتقوم هذه الإستراتيجية المفصلة في تلك الورقة على محور مهم هو المرونة. جاء فيها: "أي قوة جهادية تريد العمل على الساحة الشامية التي تموج، وسوف تموج أكثر بمستوى عنف أكبر، وبعده لاعبين أكثر يجب أن ترتكز على إستراتيجية مرنة لتحرك وفق أي نشاط في الساحة، أو ضد أي أوضاع تفرضها القوى العظمى".

ورغم أن ميثاق "الجبته الإسلامية" لم يصرح بشكل واضح أنه يسعى إلى إقامة دولة الخلافة العالمية، بل على العكس قد يكون ألمح إلى أنه يسعى إلى بناء الدولة الإسلامية ضمن حدود الدولة السورية المتعارف

عليها فقط، إلا أن عدة أسباب تدفع إلى الاعتقاد أن ميثاق الجبهة لجأ إلى التقيية والتمويه، حرصا على التماسك بين مكوناته وانتماءاتها المتباينة.

أول هذه الأسباب أن ميثاق الجبهة أطلق على نفسه عنوان "مشروع أمة"، وهذا إيحاء صريح بأن "الجبهة الإسلامية" ترى في نفسها حاملاً شرعياً لمشروع الأمة الإسلامية الذي ليس له سوى اسم واحد، هو مشروع "الخلافة الإسلامية"، ولكن قد يكون واضعوا الميثاق راعوا "المراحل" بحسب تعبير أبو عيسى الشيخ، ولم يريدوا أن يظهروا كل ما في سلتهم دفعة واحدة، بل اعتمدوا سياسة التدرج التي كانت من السياسات المعتمدة في ميثاق "حركة أحرار الشام" الإسلامية.

وسبب آخر هو أن أمير "حركة أحرار الشام" حسان عبود قال، في حديث له مع قناة "الجزيرة" في 13 حزيران 2013، "نحن نتوق إلى ذلك اليوم الذي نهدم بأيدينا أسوار سايكس - بيكو التي فرضوها علينا. هي الآن واقع، ونحن لا نتجاوز الواقع بمعطيته، ولكن ما نروم له ونأمل بأن نرى هذه الأمة كياناً واحداً مرة أخرى". وحرص عبود على استعمال تعبير الشام، وليس سوريا في مختلف تصريحاته.

الجبهة الإسلامية والتحالفات:

"عند تأسيس الجبهة الإسلامية، وصلت شاحنة إلى خارج مقر اجتماع القيادة ثلاثين مليون دولار من أجل تنظيم الدعم المالي ومرتبات المقاتلين ومختلف الاحتياجات العسكرية على أساس جماعي. هذه الشاحنة لم تكن من أهل الخير بل مباشرة مقدمة من الحكومة القطرية. أصرت الأطراف على توزيع المساعدة على مكونات الجبهة وكل يتصرف بمخصصه، أي كل طرف يعمل لوحدة بالإسلوب الذي سبق إعلان الجبهة، وكان ذلك برأيي بداية نهاية التحالف الجبهوي". هذا المقطع من شهادة مقرب من زهران علوش وعضو في الائتلاف السوري، تظهر بوضوح توافقاً إقليمياً وأمريكياً على دعم الجبهة الإسلامية عند ولادتها، ومحاولة إنهاء حقبة تقاسم الولاءات وفق مصادر التمويل والتسليح واحتياجات الجهاد. ولكن أيضاً فشل هذه المحاولات منذ اليوم الأول لإصرار كل تنظيم على هيكله الداخلي. لذا لا يمكن الحديث عن تغيير فعلي رافق بناء الجبهة الإسلامية، لأن كل من مكوناتها استمر في نفس أسلوب العمل والولاءات والتحالفات التي سبقت ولادتها. فهناك فصائل في الجبهة بنت علاقات وثيقة مع الثلاثي الغربي المتابع للملف السوري (بريطانيا، فرنسا، الولايات المتحدة). وعلاقة ثلاثة من تكويناتها قديمة جداً بالسفير الأمريكي روبرت فورد. ورغم كونها تستفيد من الممولين السلفيين في الخليج، إلا أن بعضها اعتمد أكثر على المساعدات القطرية وبعضها الآخر كان المستفيد الأكبر من المساعدات والدعم السعودي.

ثمة دلائل ومؤشرات تؤكد وجود روابط مباشرة وغير مباشرة بين "الجبهة الإسلامية" الوليدة وبين فرعي تنظيم القاعدة في سورية كنهج جرى اتباعه في العديد من التجارب. إلا أن التحالفات والصراعات في الميدان لم تحل دون وجود خلافات يجري التعبير عنها بعدة أساليب. فبعد عمليات إطلاق سراح معتقلي داعش في السجون العراقية كتب أبو العباس الشامي على تويتر: "ما أدري ما الذي يجعل قلبي مرتاباً من تحرير

سجون العراق” (2013/ 07 /22). فردت عليه المواقع المقربة من داعش يومها: “المفروض في أبو العباس أن يحمد الله على قهر الروافض وإخراج الأسرى... ولكن ماذا نفعل في من هو شديد التعصب لحزبه بل وصل لمرحلة الغلو في حزبه” (موقع أنا المسلم). ويبدو أحيانا الخلاف في قضايا التمويل ففي حين نجد مدحا وتقريظا بشافي العجمي الكويتي (حامل هم المشروع الإسلامي في بلاد الشام وفق أبو العباس الشامي) لما يقدمه من عون مالي لحركة أحرار الشام لا يتورع أنصار داعش بتسميته “الخبيث الفتان الهماز اللماز شافي الكويتي أخزاه الله في الدنيا قبل الآخرة”. ويدخل زهران علوش في هذا النقاش أيضا ولكن من منطلق المال فيقول: “أخي الحبيب لم يصلنا من حملة الشيخ شافي شيء حتى الآن. علما أن الشيخ شافي لم يدعم لواء الإسلام ولا بدينار واحد حتى اليوم” (2013 /06 /25)؟.

لقد أقرّ ميثاق “الجبهة الإسلامية” بوجود “مهاجرين” يقاتلون في سوريا. وقال عنهم “إنهم أخوة ناصرنا في الجهاد وجهادهم مقدر ومشكور... لهم ما لنا وعليهم ما علينا”. ولكن الحقائق التي تتكشف يوماً بعد يوم تشير إلى أن الأمر لا يقتصر على وجود “مهاجرين” مناصرين يرضيهم التقدير والشكر. فالأدلة تشير إلى أن تنظيم “أحرار الشام”، وهو التنظيم المحوري في “الجبهة الإسلامية”، قد بدأ العمل على تشكيله منذ بداية الأزمة السورية، وتسارعت الوتيرة في النصف الثاني من أيار/مايو العام 2011 بعد الإفراج عن أعداد من المعتقلين من سجن صيدنايا، إثر صدور مرسوم عفو عام من بينهم “أمير” التنظيم حسان عبود، وقد كان العمل في تلك الآونة سرياً ومحاطاً بكتمان شديد، ولكن بعد مرور عامين ونصف العام أصبح من المؤكد أن “كتائب أحرار الشام” كانت أول تنظيم عسكري جهادي سوري استقبل “جهاديين مهاجرين” من الدول الأخرى. ورغم عدم توفر معلومات عن أعداد “المهاجرين” الذي انضموا إليه، إلا أن معظم هؤلاء بدؤوا بالانتقال إلى “جبهة النصرة” بعد الإعلان عن تأسيسها في أواخر العام 2011، وهو ما أدى في وقته إلى تنافر بين “الأحرار” و”النصرة”. وشهدت أوساط “الجهاديين” سجلات حامية حول العلاقة المتوترة بين هذين الفصيلين.

وقد يكون كافياً أن نشير إلى أن أبا بصير الطرطوسي، أحد أشهر منظري “الجهاد” في الشام ومن بقايا الطليعة المقاتلة، كان أول من شكك بـ “جبهة النصرة” واستمر لعدة أشهر وهو يكيل لها الاتهامات، ولم يستبعد أن تكون صنيعة النظام. علماً أن الطرطوسي اعتبر في تلك الفترة من “المرجعيات الشرعية الأساسية في حركة أحرار الشام الإسلامية”. وقد كان من تداعيات هذا الخلاف بين “النصرة” و”الأحرار” أننا سمعنا للمرة الأولى في سوريا عن حديث “الصحات”. وكانت “أحرار الشام” أول حركة في سوريا تتهم من قبل “جبهة النصرة” (ينبغي الأخذ بالاعتبار الفترة التي كانت فيه النصرة تنظيماً مشكلاً بقرار من البغدادي ويتضح ذلك عند دخول مدينة حلب الذي شارك فيه رموز أساسية أصبحت من قيادات داعش بعد الإنقسام)، “بأنها مشروع “الصحات” ضد المجاهدين.

كان من بين “المهاجرين”، الذين انضموا إلى “أحرار الشام”، “مجاهدون” سابقون وحاليون في تنظيم “القاعدة”، بل كان بينهم أيضاً بعض القيادات. وإذا كان وجود قيادات من “القاعدة” من غير السوريين في

تكوينات للجبهة الإسلامية أمراً غير مثبت حتى الآن، فإن وجود قيادات سورية أصبح أمراً ثابتاً، ومن أشهر هؤلاء وأكثرهم غموضاً أبو خالد السوري.

أبو خالد السوري⁴، الذي هو من مؤسسي "أحرار الشام" وشغل فيها منصباً قيادياً أحيط بكثير من السرية والتكتم، كان في الوقت ذاته من قيادات "القاعدة" المقربين من زعيمها الراحل أسامة بن لادن وتواصل مع صحفي الجزيرة تيسير علوني قبل اعتقاله وتسليمه للسلطات السورية، وقد وصفه أيمن الظواهري بأنه من "خير من خبرنا وعرفنا" كما أوكل إليه مهمة الإشراف على حل الخلاف بين أبو محمد الجولاني وأبو بكر البغدادي. وعندما أرسل رسالة الحكم في الخلاف كان أبو خالد ثالث شخص يستلم نسخة عن هذه الرسالة بعد كل من الجولاني والبغدادي وأصحاب العلاقة.

وإضافة إلى أبي خالد السوري وأبي بصير الطرطوسي، برز اسم أبو مارياء الفلسطيني، الذي اعتقلته السلطات الأردنية وتبين أنه كان قيادياً شرعياً في "أحرار الشام". كما برز اسم أبو محمد الفرنسي بعد حادثة مسكنة في ريف حلب، الذي تبين أنه يشغل منصب المفتي العام للواء "مصعب بن عمير" الذي أسسه أبو جابر الشيخ، الذي كان في لوائه غير سوريين، وانضم بهم إلى "أحرار الشام الإسلامية"⁵.

⁴ التحق طالب الثانوية الحلبي محمد بهايا (1963-2014) بالطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين ولم يبلغ السادسة عشرة من عمره، ورغم أنه لم يشارك في عمليات ذات أهمية تذكر، انتقل بهايا إلى تركيا بعد مجزرة حماة في شباط 1982 بصفته مسئول دعم لوجستي وتهريب المقاتلين من وإلى داخل الأراضي السورية. وقد نجا من اعتقال كان سيودي بحياته عندما كُسرت رجله في اليوم الذي خطط فيه لدخول الأراضي السورية مع زعيم التنظيم عدنان عقلة الذي اختفى أثره منذ ذلك الوقت، حيث تبين أن جميع من دخلوا الأراضي السورية وقعوا في كمين لقوات الأمن. في نهاية 1987 قرر الالتحاق بالجهاد في أفغانستان مع أحد أبرز رموزه، الشيخ عبد الله عزام، (الذي يؤكد أكثر من مسئول في الطليعة عضويته في التنظيم وعلاقته بالمهندس مروان حديد). كان عزام قد أسس في باكستان ما سمي بـ «بيت الأئصار» فالتحق به محمد بهايا بمجرد وصوله إلى هناك واختار اسمه الحركي «أبو خالد». تحول بيت الأئصار إلى «بيت قاعدة الجهاد» وأصبح بهايا مدرباً للمقاتلين فيه. هناك التقى أبو خالد من جديد بصديق طفولته وزميله في تنظيم الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين أبو مصعب السوري. وعملاً معاً حتى اعتقالهما ثم تسليمهما للسلطات السورية في 2006. حكم على أبو خالد السوري بالسجن سبع سنوات وأطلق سراحه في 17 كانون الأول 2011 في حين توفي أبو مصعب السوري تحت التعذيب وفق شهادة ضابط أمن منشق.

⁵ "بعد أشهر قليلة من انطلاقة الانتفاضة، بدأ المدونون على المواقع الإلكترونية السلفية يطلبون من الفقهاء الجهاديين إصدار فتاوى تتيح لهم الانضمام إلى الحركة الاحتجاجية. وقد نصح الشيخ أبو المنذر الشنقيطي المدونين بالانضمام إلى الاحتجاجات شرط تجنب الدعوة إلى الديمقراطية أو رفع أي شعار علماني آخر. وفي نهاية العام 2011، دعا أسامة الشهابي، أمير "فتح الإسلام" في لبنان، إلى النضال المسلح في سوريا عبر المنتدى الإلكتروني "شموخ الإسلام". وبعد ذلك، نشر الشيخ الشنقيطي فتوى عبر "منبر التوحيد والجهاد" أجاز فيها استعمال العنف ضد نظام الأسد... في شباط/فبراير 2012، دعا زعيم تنظيم "القاعدة"، أيمن الظواهري، المقاتلين في العراق والأردن ولبنان وتركيا إلى التحرك دعماً لمن سماهم "إخوانهم في سوريا". وفي الوقت نفسه تقريباً، أصدر الشيخ السلفي أبو محمد الطحاوي فتوى دعا فيها إلى الجهاد في سوريا. (من دراسة منى علمي الصادرة عن مركز كارنيغي في مطلع 2013)..

ولكن يبقى المثال الأهم على ارتباط "أحرار الشام" بالجهاد العالمي هو "كتيبة الفرقان" التي تشكل من عناصر جميعهم "جهاديون مهاجرون" من مختلف دول العالم.

من المؤكد أن "أحرار الشام" تنطوي على تيار مهم داخلها ينتمي إلى "القاعدة"، بعضه ينتمي تنظيمياً وبعضه من حيث النهج. وقد يكون هذا التيار هو الذي استطاع مؤخراً أن يهيمن على القرار في الحركة وبالتالي على "الجبهة الإسلامية" ثم تقاسم النفوذ والقيادة في جيش الفتح باستقلال عن مكونات الجبهة الإسلامية. وما التحالف الوطيد بين الجبهة من جهة وبين "جبهة النصرة" من جهة أخرى سوى مؤشر على ذلك، لأن "أحرار الشام"، كما غالبية الفصائل المسلحة، أخذت في البداية موقفاً منتقداً لبيعة الجولاني للظاهري، ورأت فيها خدمة للنظام السوري، لكنها بعد ذلك . تحديداً بعد الخلاف بين "النصرة" و"داعش" . لم تجد غضاضة في التحالف مع من كانت تتهمها بخدمة النظام. جانحة للتمييز بين غلو (داعش) وتقهّم (النصرة) لأوضاع سورية. وفي حين قدمت حركة أحرار الشام نفسها باعتبارها "حركة إسلامية شاملة تعمل على تحرير الأرض ورفي الإنسان وبناء مجتمع إسلامي راشد في سوريا". فهي في خطابها وعلى موقعها الإلكتروني تستعمل تعبير الميليشيات الشيعية لوصف الجيش السوري ومن يقاتل معه وتعبير عصابات أو ميليشيات في وصف "وحدات حماية الشعب" الكردية. وتحدث بأريحية عن الصراع ضد الشيعة والرافضة والنصيرية والمجوس في الأفلام التي توزعها لعملياتها. الأمر الذي نجده واضحاً أيضاً في "لواء الإسلام" حيث شهدنا تصويراً مسجلاً لزهرة علوش يقول فيه ما يلي: "سيعود مجد بني أمية إلى دمشق والشام رغم أنوفكم وسيغسل مجاهدو الشام رجس الرافضة والرافضية من الشام، سيغسلونه إلى الأبد ان شاء الله حتى يطهروا ربوع بلاد الشام من رجس المجوس". ويمضي قائلاً "يحاصر المجوس من الرافضة والنصيرية الغوطة وإنني أبشركم أيها الرافضة الأنجاس بأنه كما حطم بنو أمية رؤوسكم سابقاً سيحطم أهل الغوطة وأهل الشام رؤوسكم لاحقاً. سيذيقونكم سوء العذاب في الدنيا قبل أن يذيقكم الله سوء العذاب يوم القيامة. أيها الرافضة الأنجاس ستلقون ما لا تحسبون حسابه". أما عن العلاقة بالقاعدة فيقول علوش رئيس الهيئة العسكرية في الجبهة وقائد جيش الإسلام لصحيفة الحياة اللندنية بتاريخ 21 تشرين الثاني/نوفمبر 2013 يقول: "إن جبهة النصرة فصيل إسلامي مقاتل منتشر في سورية، وهم أخوة ذوو بأس شديد ونكاية في الأعداء، واشتركنا معهم في كثير من المعارك ورأينا منهم الإقدام والجهاد الطيب، وأنا شخصياً اجتمعت بشرعي جبهة النصرة ابو ماري القحطاني (المسئول الشرعي) وما وجدت فرقا بين شرعي جبهة النصرة وشرعي جيش الإسلام وقلت لو أننا كنا فصيلاً واحداً لكان أبو ماري هو شرعي جيش الإسلام" وأضاف قائلاً أنه ينتمي على أبو محمد الجولاني الفاتح (قائد جبهة النصرة) الذي "من خلال اجتماع جمعني به قديماً (منذ حوالي عامين) لمست فيه الحرص على مستقبل الأمة".

تدل العمليات العسكرية المشتركة وتكوين القيادات ميدانياً كما في القلمون وعرسال وإدلب وعمليات سجن حلب المركزي المشتركة بين الجبهة الإسلامية والنصرة وعمليات القنيطرة، على مدى التداخل والتعاون بل والتنافس على تنظيم وكسب "المهاجرين" أي المقاتلين الأجانب حتى فترة "ميثاق الشرف الثوري". وتتزعم

عناصر من "النصرة" عددا كبيرا من كتائب "الجبهة الإسلامية" في مناطق التنسيق المشترك ناهيك عن التداخل والتوافق في الأسلوب والنهج والشحن والخطف والقتل المذهبي. من هنا اعتبرت المنظمات الحقوقية أن لا فرق في النظرية والممارسة يذكر بين جبهة النصرة وحركة أحرار الشام الإسلامية في السنوات الأربع الأولى من نشأة التنظيمين. فالتنسيق قائم على قدم وساق والعمليات المشتركة تتجاوز 80% من مجموع العمليات التي يقوم بها كلا الطرفين ويبقى فارق واحد أن نسبة المقاتلين الأجانب في أحرار الشام أقل منها بكثير في القاعدة. وأن "حركة أحرار الشام" تقيم شبكة علاقات جيدة مع غرفة عمليات الشمال التي يشارك بها ضباط بريطانيون وفرنسيون وأمريكيون وقطريون وأتراك. ولم تقطع شعرة معاوية مع الطرف الأمريكي، بل حاولت كسب ود الأمريكي عبر مقالات لبيب نحاس والتواصل مع السفيرين الأمريكيين في سوريا روبرت فورد ومايكل راتتي. وكانت هذه العلاقات أكثر قوة مع التيار البراغماتي والإخواني ولكن تحت أنظار وبعلم التيار المتشدد. وقد سعت حركة أحرار الشام الإسلامية لعلاقة مع السعودية منذ وفاة الملك عبد الله. الأمر الذي منحها حصانة وحماية، ومكان في مؤتمر الرياض في ديسمبر 2015. وسمح لها مع باقي مكونات الجبهة الإسلامية، على الحصول على حصة الأسد من المساعدات الحكومية الخليجية والغربية وأن تبقى بعيدا عن التصنيف الأوروبي والأمريكي والدولي كمنظمة إرهابية. ولعل من نقاط التقاطع والغموض ما نجده في أسماء عدة من "السوريين الأفغان" الذين سبق وعملوا في تنظيم القاعدة مثل أبو الحسن التبوكي.

أبو الحسن التبوكي (إياد الشعار)

قائد (أحرار الشام) في الساحل السوري وجسر الشغور: شقيق قائد عملية مسرح موسكو!

تكشف العديد من الحقائق حول العملية التي قامت بها بعض الفصائل المتشددة في ريف اللاذقية الشمالي، وتحديدًا في كسب ومحيطها وبعدها في إدلب وجسر الشغور تحديداً. كانت صحيفة "السفير" اللبنانية أول من كشف حقيقة أن "الأمير العام" لهذه العملية هو أبو موسى الشيشاني، القائد العسكري العام لـ"كتائب أنصار الشام"، ليتبين لاحقاً أن العنصر الشيشاني هو العمود الفقري لهذا الهجوم، لا سيما بعد مشاركة كل من القيادي الشهير مسلم الشيشاني (أبو الوليد) "أمير" جماعة "جنود الشام" في ريف اللاذقية ونائبه أبو تراب الشيشاني، اللذين كانا وما زالوا المشرفين على الهجوم على نقطة المرصد 45.

كان من الواضح أن أحد القواسم المشتركة للهجوم على ريف اللاذقية في 2014 هو انتماء جميع قادته العسكريين إلى الشيشان، أو إلى المعادين لروسيا خاصة، ومن شأن ذلك توفير المزيد من الإثبات على أن قادة الهجوم على كسب جميعهم من ذوي الارتباط بالاستخبارات التركية التي تجمعها مع الحركات الإسلامية في الشيشان مصالح وتاريخ طويل من العلاقات المستمرة حتى الآن. فقد شارك كل من مسلم الشيشاني

وأبو موسى الشيشاني في العديد من العمليات الإرهابية ضد القوات الروسية في تسعينيات القرن الماضي كان أبرزها عملية "خير الله". وليس هذا فحسب، فالقائد العسكري لحركة "أحرار الشام" في ريف اللاذقية هو أبو الحسن التبوكي (رغم أنه سوري وليس سعودياً)، تمتد أيضاً بينه وبين روسيا عداوة لا تقل عن عداوة الشيشان، وهو من القادة الميدانيين الكبار لعملية الهجوم على كسب 2014 وجسر الشغور 2015. فمن هو؟

غادر إباد الشعار مدينته جسر الشغور عام 1978 وعمره 11 عاماً، مع عائلته إلى السعودية حيث عمل والده في تبوك. وقد تأثر بالسلفية الوهابية مبكراً والمعروف عنه أنه صاحب تاريخ سابق في القتال في أفغانستان، فهو من الأفغان العرب المتأخرين والمقاتلين في صفوف القاعدة مع شقيقه ياسر.

عاد إلى جسر الشغور مدينته بعد 37 عاماً من مغادرتها مع جيش الفتح ضمن فصيل أحرار الشام في 2015 وكان مصاباً وظهرت شائعات عن وضعه الصحي على الشبكة الاجتماعية.

أبو الحسن إذن هو شقيق "ياسر السوري"، واسمه ياسر الشعار، وهو العربي الوحيد الذي شارك في العملية الإرهابية التي استهدفت أحد مسارح روسيا قبل 12 عاماً. وثمة معلومات تؤكد أن السوري كان من القادة الذين خططوا ونفذوا هذه العملية، وليس مجرد عنصر عادي.

ومع اندلاع الأزمة السورية عاد أبو الحسن إلى سوريا حيث انضم إلى "حركة أحرار الشام" بطلب من تنظيمه باعتبار الأحرار تنظيم لا يختلف عن "القاعدة"، سواء من حيث العقيدة أو السلوك، أو من حيث نوعية القيادات التي تتحكم بأهم مفاصله. وبرز من هذه القيادات كل من أبو خالد السوري وأبو مريم الفلسطيني وأبو محمد الفرنسي وغيرهم كثير، وجميع هؤلاء كانوا على علاقة تنظيمية سابقة بتنظيم "القاعدة" العالمي أو بـ"الجهاد" في أفغانستان.

لقد تناولنا في غير تقرير العلاقة الوطيدة بين "حركة أحرار الشام" والاستخبارات التركية، خصوصاً عن طريق بعض قياداتها، ونذكر منهم هنا أبو الحسن التبوكي الذي كانت تربطه مع شقيقه ياسر السوري علاقات قوية مع أجهزة الاستخبارات التركية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى أيمن أبو التوت، الملقب بـ"أبو العباس الشامي" وكان "المفتي العام للجبهة الإسلامية" قبل مقتله. كان أبو التوت مقيماً في تركيا لعدة سنوات، بمعرفة أجهزة الأمن التركية، التي غضت النظر عن علاقاته الكثيرة مع بعض التنظيمات المتطرفة في التسعينيات، قبل أن تسلمه السلطات التركية قبل الأردوغانية إلى دمشق في 1993، القصة التي حرص على عدم ذكرها في مقابلاته الإعلامية لعدم "الإساءة للصديق التركي".

يشار إلى أن عملية مسرح موسكو قامت بها مجموعة مكونة من حوالي 50 شيشانياً متطرفاً، من بينهم ياسر السوري وينتمون إلى جمهورية الشيشان، حيث هاجموا، بقيادة موفسار باراييف، مسرحاً في موسكو في 23 تشرين الأول العام 2002، واحتجزوا مئات الرهائن، مطالبين آنذاك بانسحاب القوات الروسية من الشيشان وإنهاء الحرب الشيشانية الثانية. وبعد يومين ونصف من الحصار، ضخت القوات الخاصة الروسية

غازًا كيميائيًا في فتحات التهوية في المبنى، ثم اقتحمته. وقتل بسبب هذه العملية 39 من المهاجمين، من بينهم ياسر السوري على أيدي القوات الروسية، وما لا يقل عن 129 من الرهائن.

الإتصال والإنفصال

يمكن القول أن أول مواجهة جدية بين جبهة النصرة وحركة أحرار الشام الإسلامية، قد وقعت بعد صدور "ميثاق الشرف الثوري" الذي كان مؤسس حركة الأحرار والمسئول السياسي في الجبهة الإسلامية مهندسها وصانعه.

شكل "ميثاق الشرف الثوري" أول وثيقة سلفية جهادية سورية تطرح تصورا مختلفا عن الإرث القاعدي وبمواجهة مباشرة معه. بل لعله المراجعة الأولى والأهم بالنسبة لمكونات "الجبهة الإسلامية". مراجعة تمس مباشرة مسائل الإنتماء الإيديولوجي والمرجعية والهدف، ولم يتمكن شرعيو النصرة من تمالك أعصابهم فخرجت تغريدات عديدة خرج معظمها من سقف الإحترام الظاهري في مسائل الخلاف. لم يكن الأردني سامي العريدي قد حلّ محلّ أبي ماري القحطاني بعد كشرعي للنصرة، وكان يسمى «مفتي النصرة في درعا» ومع هذا وصف الميثاق بورقة «تخاذل وانبطاح». واعتبر العريدي أن «الجهاد يمر هذه الأيام بمرحلة ابتلاء وتمحيص»، معلناً البراءة من «كل دعوة أو ميثاق أو جماعة لا تتادي بكل وضوح ولا خفاء ولا مداراة بحاكمية الشرعية». واصفا حملة راية الجهاد في «جبهة النصرة»: «أهل الحق غرباء بين أهل الانبطاح والتنازلات وبين أهل الغلو والإفراط». وقد خاض في سجال غير مباشر مع رئيس الهيئة السياسية لـ «الجبهة الإسلامية» حسان عبود على موقع «تويتر». إذ بينما دافع عبود عن الميثاق قائلاً «سوف نمضي في دربنا، ولا نلتفت إلى من يريد الانتهاء بنا في شعف الجبال والغابات وقفار البوادي لنخوض جهاد النخب»، رد عليه العريدي بالقول إن «الحياة في الجبال والكهوف في ظل حاكمية الشريعة خير من الحياة في القصور في ظل غيرها، ولنا في حركة طالبان آية».

وبعد أقل من أربعة أيام من الأخذ والرد على الشبكة العنكبوتية، أصدرت جبهة النصرة ردا مفصلا على الميثاق ينتهي بمطالبة الموقعين عليه بسحبه من التداول. (أنظر الملاحق).

كان "ميثاق الشرف الثوري" أول عملية فرز داخل حركة أحرار الشام نفسها، حيث بدأت العناصر القاعدية بالتعلق والتجمع الشللي من جهة، ومن جهة ثانية بدأ التيار "الوطني السوري" يعزز صفوفه وأطروحاته وينظم علاقاته بمختلف أطراف الفصائل السورية المقاتلة. وكان في موقع قوي يتمتع بحاضنة اجتماعية قوية كون زعيمه أبو عبد الله الحموي يتمتع بكاريزما ولم يعمل تحت أوامر البغدادي أو الظواهري يوما. بحيث أن جبهة النصرة هي التي اهتزت داخليا بسبب موقفها "الإنعزالي والمتطرف" حسب تعبير أكثر من منشق عنها في روايته عن تلك الفترة. إلا أن الأمر لم يدم طويلا. خاصة وأن العديد من الأطراف الإقليمية، وليس فقط جبهة النصرة، استشعرت خطر إطروحات جذرية تتناول قضية المقاتلين غير السوريين بجرأة

غير عادية تحدث بها حسان عبود على قناة الجزيرة: "نحن لسنا بحاجة للعنصر البشري غير السوري، لدينا ما يكفي من المقاتلين السوريين خاصة وأن الكثير منهم وقع ضحية التضليل وتحولت نصرتهم الإبتدائية إلى نقمة". وحول استقلال القرار السوري: "القرار يجب أن يكون سوريا خالصا". ونقده علنا في أكثر من مناسبة "من يقدم صالح الجماعة على مصلحة الأمة" ووصفه لأشباه الشرعيين الذين صاروا ولاية أمر بأنهم "حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، لا فقه في الدين ولا معرفة بالسياسة الشرعية".

هذه المراجعات الهامة وضعت حركة أحرار الشام ومؤسسها في فوهة أكثر من مدفع، وبدأت الآلة الإعلامية للقاعدة تتهمه بالميوعة والتفريط والتقصير. الأمر الذي زاد من شعبية الفصائل الموقعة على الميثاق بعكس ما عملت عليه القاعدة، أي جبهة النصرة وتنظيم خراسان وأئمة فقه الدم.

في خضم هذه الفرز الجديد والتموضعات الناجمة عنه، أثبتت قيادة "حركة أحرار الإسلام" أنها الأكثر استقلالا في قرارها والأكثر قدرة على مواكبة تقدمها العسكري بخطاب سياسي أكثر استقلالا عن القاعدة وداعش والسلطات التركية والخليجية. وأنها رغم خطابها المذهبي والعنفي، تمكنت من الاحتفاظ بعلاقات مطمئنة للولايات المتحدة والغرب. وأنها قوة عسكرية سياسية قادرة قيادة المجموعات الجهادية والإسلامية المختلفة خارج نطاق داعش والقاعدة.. بكلمة، طرفا مقبولا ومعقولا يمكن التعامل معه غريبا. الأمر الذي يتخطى الخطوط الحمر التركية والداعشية والنصروية. وقع أكبر حادث إغتيال جماعي في سوريا تعرض له أحد أطراف الصراع، طال خمسة وأربعين قياديا في حركة أحرار الشام في أيلول 2014، ليأتي الصف الثاني لمواقع القيادة ويتولى أبو جابر الشيخ منصب القائد العام؟

في ظروف كهذه، يبقى الجواب على سؤال: من المستفيد من عملية الاغتيال الجماعية؟

الجواب ببساطة، وموضوعية بعيدا عن العقل التأمري، يوجد خمسة أطراف مستفيدة:

جماعة خراسان والشرعيون غير السوريين

البغدادي وداعش

أبو محمد الجولاني والرافضون لسورنة جبهة النصرة

المخابرات السورية

المخابرات التركية

وباستعارة تعبير الفقيه جورج حاوي، "عندما يرفع الغطاء عن شخص أو تنظيم، تصبح مسألة التصفية مسألة تقنية وحسب".

ما بعد المذبحة ليس كما قبلها

كانت سياسة أبو جابر الشيخ قائمة على تعزيز العلاقة مع جبهة النصرة، وتعزيز دور التيار القاعدي دون القطع مع التيار الإخواني والإصلاحي. خاصة وأنه مطمئن لغياب شخصيات كبيرة في هذا التوجه قادرة على منافسته. إلا أن حساباته لم تتوافق مع المستجدات، فجرى إبعاده بعد عام وتعيين مهند المصري الأكثر قدرة على التعامل مع العناصر التي يسميها العريدي وغيره "بالمتميعين". ثم حملت المستجدات السياسية

والعسكرية الخط السياسي إلى الواجهة، وبدأت مرحلة المواجهة المفتوحة بين جناحي الأحرار بتدخل فاضح من كل من يستطيع، لتعزيز هذا الجناح أو ذاك.

الصحفي المتابع عبد الله سليمان علي يحاول رسم آخر ما آل إليه المشهد يقول:

"وجدت "أحرار الشام" نفسها بعد مؤتمر أستانا في وضع لا تُحسد عليه، خصوصاً بعد ما تبين أن "جبهة النصرة" (فتح الشام) كانت مُستعدةً للتحرك في مواجهة المؤتمر الذي يستهدفها بسرعة كبيرة ووفق خطة مدروسة مُسبقاً. وبالفعل استطاعت "النصرة" خلال ساعات معدودة أن تخلط الأوراق في الشمال السوري مُثبتة أنها رقم صعب لا يمكن تجاوزه أو الالتفاف عليه بسهولة. تحرك النصرة كان من شقين: الأول عسكري تمثّل بمهاجمة بعض الفصائل المشاركة في مؤتمر أستانا، والثاني تنظيمي تمثّل باستقطاب عدد من الفصائل المسلّحة أهمها "الزنكي" و"أنصار الدين" و"جيش السنّة" لصقّها والاندماج معها تحت مُسمّى "هيئة تحرير الشام" وهو للمفارقة نفس الإسم الذي كانت الفصائل تنوي استخدامه لو نجحت مفاوضات الاتحاد في ما بينها إبان بدء "عاصفة السوخوي" الروسية أواخر العام 2015. وعلى الرغم من أن "أحرار الشام" لم تشارك في مؤتمر أستانا ولم توافق على مقرراته، وبالتالي يُفترض أن تحرك "النصرة" لم يكن موجهاً ضدها، إلا أن تفاعل الأحداث والتطوّرات كانا كفيلين بوضع الحركة في قلب الزلزال. فجأة، احتضنت "أحرار الشام" غالبية الفصائل التي هاجمتها "جبهة النصرة" بسبب مشاركتها في مؤتمر أستانا، كما سارعت إلى رفض عرض الاندماج ضمن "هيئة تحرير الشام" رغم أن قائد الحركة أبو عمّار العمر سبق له توقيع وثيقة اندماج مع نفس الفصائل قبل اسابيع عدّة، لكنه سحب توقيعه إثر ضغوط تعرّض لها من التيار السياسي في الحركة الذي يقوده الأخوان نحاس "البيب وكنان" الأول رئيس مكتب العلاقات الخارجية والثاني عضو مجلس الشورى وعضو المكتب السياسي. ويبدو أن قيادة "أحرار الشام" أخطأت في قراءة مدى أهمية وخطورة حدث "مؤتمر أستانا" بالنسبة إلى حليفها اللدود "جبهة النصرة". وظنّت أنه من المُمكن احتواء تداعياته وفق نفس سياسة الاحتواء التي كانت تتبّعها تجاهها إزاء بعض التطوّرات السياسية في المراحل السابقة. وانطلاقاً من ذلك اكتفت الحركة بإصدار تعميم داخلي يُبرّر عدم مشاركتها في مؤتمر أستانا شارحة أن من أهم أسبابه هو رفض عزل "جبهة النصرة". لكن سرعان ما تبين أن هذا التبرير ليس سوى محاولة لضرب عصفورين بحجر واحد، الأول استيعاب "جبهة النصرة" ومنعها من اتّخاذ مواقف حادّة، والثاني الحفاظ على وحدتها الداخلية من خلال مغازلة "جيش الأحرار" الذي كاد ينشقّ عنها بقيادة أبي جابر الشيخ. ولم تكن الحركة مُستعدةً للذهاب أكثر من ذلك، بدليل أنها احتضنت الفصائل التي وافقت على عزل "النصرة" في أستانا، ثم رفضت الاندماج مع الأخيرة لحمايتها من الاستهداف الدولي القادم. هذا التناقض في مواقف الحركة كان كفيلاً بإسقاط ورقة التين الأخيرة عن صراع الأجنحة المُحتدم داخلها والذي طالما أنكرت قيادة الحركة وجوده. فلم يستطع التيار القاعديّ في الحركة أن يتماهى مع مواقف قيادته العامة التي بدا جلياً أنها

تتلاقى من تحت الطاولة مع الأجنحة التركبية المتلاحقة في هذه الفترة مع الأجنحة الروسية بخصوص بعض القضايا وعلى رأسها فصل "المعتدلين" عن "المتطرفين"، فسارع قادة هذا التيار إلى الانشقاق عن الحركة والانضمام إلى "هيئة تحرير الشام" وكان من أبرزهم أبو جابر الشيخ وأبو صالح الطحان، وأبو الفتح الفرغلي، وأبو حمزة المصري، وأبو محمد الصادق، وهم جميعاً من قادة الصف الأول في الحركة. كما طالت الحركة موجة انشقاق واسعة من قبل العديد من الألوية والكتائب وأهمها أجزاء واسعة من "لواء التمكين" و"لواء المدرعات" وعشرات الكتائب الأخرى. وما زالت موجة الانشقاق مستمرة، لذا من المبكر وضع إحصاءات دقيقة حول أعداد المنشقين ومدى ثقلهم العسكري والمعنوي في الحركة، غير أنه من الواضح أن هذه الانشقاقات ستؤدي إلى تغيير وجه الحركة على نحو كبير. ومع ذلك من غير المتوقع أن يخرج التيار القاعدي بكامله من عباءة "أحرار الشام" والانضمام إلى "تحرير الشام" لسبب بسيط هو أن "جبهة النصرة" لا تريد أن تخسر قدرتها على التأثير في أوساط الحركة، ولا إمكانية معرفة دقائق الأمور عما يجري في كواليسها، لذلك سوف تحافظ على بعض المقرّبين منها في داخل الحركة. كما أن بعض الشخصيات أو الكتائب القاعدية قد لا تتوافر لها الشروط المناسبة لإعلان انشقاقها، فتوجّل ذلك إلى وقت لاحق. في المقابل انضم إلى "أحرار الشام" عدد من الفصائل الكبيرة مثل "جيش المجاهدين" و"تجمّع فاستقم" وقطاعات من "الجبهة الشامية" و"جيش الإسلام" وهي جميعها مشاركة في مؤتمر أستانا، بالإضافة إلى عشرات الكتائب الصغيرة الأخرى. وقد كان من اللافت أن "فيلق الشام" لم ينضم إلى الحركة رغم أن اسمه كان وارداً مثل بقية الفصائل الأخرى في "مبادرة إنقاذ" التي حثّت الفصائل المهتدة من قبل "النصرة" على الانضمام إلى "أحرار الشام". ويبلغ عدد المنضمين إلى الحركة أضعاف عدد الذين انشقوا عنها حتى الآن، ومع ذلك فإن تأثير الانشقاقات سيكون أوسع وأعمق من تأثير الانضمامات. هذا الفارق في التأثير لن يكون بسبب الثقل المعنوي لبعض المنشقين أو لبعض أولئك الذين تخلّوا عن استقلاليتهم وانحازوا إلى "تحرير الشام" مثل عبدالله المحيسني وأبو الحارث المصري، ولا بسبب الثقل العسكري لبعض الألوية والكتائب المنشقة، بل لأن بعض الانضمامات إلى "أحرار الشام" هي انضمامات شكلية الهدف منها حماية بعض الفصائل لنفسها، وبالتالي لن يطول الوقت قبل أن تنفصل من جديد (أحرار الشام في مهب النصرة وتركيا وأستانة، 7 شباط/فبراير 2017، موقع الميادين).

لم يتمكن أي من القياديين الثلاثة (هاشم الشيخ، مهند المصري، علي العمر)، الذين تتابعوا بعد اغتيال حسان عبود وإخوانه من الحفاظ على الرصيد والقوة والتماسك الذي تركته القيادة، ووفق شهادة أحد كوادر الأحرار اللاجئيين إلى أوربة: "مأساتنا أن من شروط القيادة اليوم أن تكون مقرباً من المخابرات التركية، غير ميال للقاعدة، داعم للانضمام للجبهة الوطنية للتحرير".

بدأ بريق الحركة بالتراجع. وكانت آخر محاولات الإنقاذ في استبسال الأحرار للإفراج عن حسن صوفان⁶ في صفقة تبادل مع السلطات السورية، حيث عيّن قائدا عاما في آب أغسطس 2017، وبعد قرابة العامين في قيادة حركة أحرار الشام لم ينجح خلالها في إستعادة موقعها ومواطن قوتها، استقال لأسباب شخصية في حزيران 2019

يسنعرض "موقع شام" الإسلامي تراجع الحركة بالقول: "فترة قيادة"أبو عمار العمر" كان الأشد على الحركة مع توقف الدعم الخارجي لها وخسارتها عدة أوراق سياسية وتراجع أداء مكتبها السياسي لأسباب عديدة أبرزها عدم القدرة على اتخاذ قرار واضح بشأن المتغيرات السياسية والعسكرية على الأرض، لتكون الضربة القاضية على يد الجولاني والذي أعد خطة محكمة لمواجهة الأحرار في إدلب وجهاز لذلك معسكرات وفتاوى وأعد العدة جيداً قبل أن تبدأ المعركة الأكبر في عموم الشمال السوري بين الفصيلين في تموز 2017، والتي سببت خسارة الحركة لجزء مواقعها ومناطق سيطرتها وصولاً لمعبر باب الهوى المعبر الاستراتيجي الذي تتحكم به الأحرار، حيث خرج العمر وجل قياداته مع قوة عسكرية محدودة من المعبر في 23 تموز باتجاه منطقة جبل شحشبو بعد حصاره من قبل هيئة تحرير الشام لأيام والاتفاق على تسليم المنطقة والسلاح الثقيل". (15 كانون الثاني 2019).

كأن وصول حسن صوفان كان بعد غرق الزورق، لذا استقال من القيادة، لتبدأ مع خليفته جابر علي باشا آخر حلقات الموات.

في تقدير ميداني لعدد من الباحثين الميدانيين في 2014، قدرت المجموعة عدد مقاتلي حركة أحرار الشام عشية تفجير رام حمدان بعشرين ألف مقاتل. لم نتمكن من تقدير عدد مقاتلي ومنتسبي الحركة في نهاية 2020. وقد نشرت "حركة أحرار الشام"، قائمة بأسماء قتلاها خلال المعارك في سوريا منذ عام 2011 حتى نهاية كانون الأول 2020: حيث بلغ عدد قتلى "حركة أحرار الشام" في نشرتها، الثلاثاء 5 من كانون الثاني 2020، 9525 قتيلاً، وقد تضمنت القائمة الاسم الثلاثي للقتلى دون أي تفاصيل أخرى، كمكان مقتلهم وتاريخه أو اسم المعركة التي قتلوا فيها، وإن كان ذلك قد وقع، في صراعات بين الفصائل المعارضة، أو في مواجهات مع القوات السورية وحلفائها.

⁶ ولد حسن صوفان (أبو البراء) في اللاذقية 1979، يحمل إجازة في التجارة والاقتصاد من جامعة الدعوة في السعودية، سلمته السلطات السعودية لدمشق في 2004 في ظروف غامضة وقد أمضى في صيدنايا 12 عاماً وأفرج عنه في صفقة تبادل.

هذه الدراسة فصل من كتاب جماعي يصدر في 2021 عن المعهد الاسكندنافي لحقوق الإنسان/مؤسسة
هيثم مناع بعنوان: القوى السياسية والمدنية والعسكرية في سوريا(2011-2021)

L'Institut Scandinave pour les Droits de l'Homme/ FHM
Rue Richard Wagner, 1
Case Postale 128 1211 Genève 20

<http://sihr.fr/> Email : sihr.geneva@gmail.com T : +41 229 10 47 12